



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne

AnIsl 51 (2018), p. 223-238

Luṭfī Bin Mīlād

al-Mağāriba wa-tiğarat al-Hind min al-bahr al-ahmar ilā al-muḥīṭ al-hindī wa-l-Şīn
(nihāyat al qarn 5 H/11 M ilā nihāyat al-qarn 9 H/15 M)

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

- | | | |
|--|--|--|
| 9782724711462 | <i>La tombe et le Sab?l oubliés</i> | Georges Castel, Maha Meebed-Castel, Hamza Abdelaziz Badr |
| 9782724710588 | <i>Les inscriptions rupestres du Ouadi Hammamat I</i> | Vincent Morel |
| 9782724711523 | <i>Bulletin de liaison de la céramique égyptienne 34</i> | Sylvie Marchand (éd.) |
| 9782724711707 | ????? ?????????? ??????? ??? ?? ???????? | Omar Jamal Mohamed Ali, Ali al-Sayyid Abdelatif |
| ??? | ????? ?? ??????? ??????? ?? ??????? ??????? ???????????? | |
| ????????? ??????? ??????? ?? ??????? ?? ?? ??????? ??????: | | |
| 9782724711400 | <i>Islam and Fraternity: Impact and Prospects of the Abu Dhabi Declaration</i> | Emmanuel Pisani (éd.), Michel Younès (éd.), Alessandro Ferrari (éd.) |
| 9782724710922 | <i>Athribis X</i> | Sandra Lippert |
| 9782724710939 | <i>Bagawat</i> | Gérard Roquet, Victor Ghica |
| 9782724710960 | <i>Le décret de Saïs</i> | Anne-Sophie von Bomhard |

لطفى بن ميلاد*

المغاربة وتجارة الهند من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والصين

(نهاية القرن ٥ هـ / ١١ م إلى نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م)**

ملخص

تعتمد مقاربتنا في هذا المقال على تبع ظاهرة حضور تجار الغرب الإسلامي (شمال إفريقيا والأندلس) في تجارة الشرق من الإسكندرية إلى الصين طوال القرون الأخيرة من العصر الوسيط. وهي تجارة قديمة قدم الحضور البشري بأطراف العالم المتوسطي لكنها تكثفت بالبحر الأحمر مع النصف الثاني من القرن ٥ هـ / ١١ م لعوامل موضوعية منها اضطراب الطرق البرية، الهالاليون، البحرية، النورمان والصلبيون، ومعاداة الوجود اليهودي بالحوض الغربي للمتوسط. لذلك تعتبر رسائل الجنيزاً جد هامة حتى مطلع القرن ٧ هـ / ١٣ م لكنها لا تتحدث إلا عن تجار يهود. إلا أن ازدهار تجارة الكارم أظهر وجود جالية تجارية ذات أصول مغربية بل ومنطلقة من المغرب أثبتت انحرافها الفعلي

* لطفى بن ميلاد، أستاذ مساعد للتاريخ الوسيط، قسم علم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القيروان (جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط)، lotfi.b.miled@gmail.com

** النص المعدل لمحاضرة شارك بها صاحبها في الندوة الدولية حول «طريق الحرير بين الصين والمغرب» بكلية الآداب - عين الشق - الحسن II - الدار البيضاء من ٢١ إلى ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥ م . ويدين هذا البحث بالمراجعة والملاحظات الدقيقة والقيمة التي أبدتها الدكتور Éric Vallet المحاضر في تاريخ اليمن والجزيرة العربية والمحيط الهندي بجامعة السوربون، والمادة العلمية التي وفرها زميله في نفس التخصص الدكتور عبد الحميد سعيد المحاضر بكلية الآداب بسوسة والنصائح التي أبدتها الاستاذ احيمدة التوكابري المتخصص في العالم اليهودي الوسيط بكلية الآداب بصفاقس، فلكل هؤلاء الشرك الجليل وأحر عبارات التقدير.

في تجارة القرن ٩هـ/١٥٠م ووعيها بأزمة التوابل التي كانت لغير فائدة العالم الكلاسيكي وحتى قドوم البرتغال مطلع القرن ١٠هـ/١٦٠م. إن حضور هؤلاء سمح لكتيرين بالمواصلة في جزر المحيط الهندي وحتى الصين، تذكراهم كتب الرحالة وأشهرهم ابن بطوطة.

الكلمات المفتاحية: ابن بطوطة، الجنiza، الصين، الكارم، الهند، اليهود

◆ ABSTRACT

Our approach is based on tracking the Islamic Western merchants (North Africa and Muslim Spain) presence in the Eastern trade from Alexandria to China during the late Middle Age. Trade activity goes back to ancient times and flourished in the Red Sea during the second half of the 5th/11th century thanks to some objective factors, such as troubles along territorial roads (Banū Hilāl), maritime routes (Normans and Crusaders) and the spread of antisemitism spreading in the Mediterranean Western basin. For that reason, the “Geniza” letters are considered as a prominent historical source until the beginning of the 7th/13th century. However, the documents show some limitations, since they mention Jewish merchants only. Yet the prosperity of the “Karimi” trade revealed the existence of a community of Maghribi origin whose members had a decisive role in the 15th century trade. They were conscious of a crisis in the spice trade, which was of no use for the classical world till the advent of the Portuguese in the early 16th century. The latters’ presence allowed many of them to remain in the Indian Ocean islands and even in China. They are mentioned in travelogues, especially the most famous one, Ibn Baṭṭūṭa.

Keywords: Ibn Baṭṭūṭa, Geniza, China, Karimi, India, Jews

* * *

أن نتحدث عن وجود أهل المغرب والأندلس في أواسط آسيا إلى تخوم الصين، حتى نهاية العصر الوسيط فذلك ليس بالأمر الجديد، فالمصادر كررت مراراً حضور تجار من المغرب في تلك المناطق، فإن كانت عصور الازدهار الخلافية ملائمة للتبادل وانتقال التجار إلى أوروبا وأسيا، فإن اضطراب الطرق التجارية مع نهاية القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي سبب اضطراباً لتجارة المغاربة أيضاً وخاصة تلك المتعلقة بجلب البضائع الشرقية أو تصدير المواد المغربية إلى أقصى الشرق، علمًا أن هذا الاضطراب بلغ أوجه بوصول الصليبيين إلى بيت المقدس سنة ٩٤٩هـ/١٠٩٨م. حيث تحولت الطرق من الإسكندرية إلى جدة وعدن والهند، ولم تنته هذه الاضطرابات بل

تواصلت مع قدوم المغول الذين اكتسحوا فارس وشرق أوروبا طوال القرنين ٧-١٤هـ / ١٣-١٤ م انتهاءً بالحراء التيموري ثم العثماني. هكذا إذن يمكن القول أنّ الحقبة التي نحن بصددها والتي تهم الصلات التجارية بين المغرب والشرق الأقصى هي تجارة بحرية بامتياز تمرّ بالضرورة عبر موانئ الإسكندرية وجدة إلى عدن ثم كاليكوت وأهم موانئ الصين، وذلك يطرح العديد من القضايا. من هم المغاربة الذين مارسوا هذه التجارة؟ ما نوع التجارة التي مارسواها بين الشرق الأقصى وبلاد المغرب الإسلامي؟ هل بقيت ذاتها طوال القرون الأربع الأخيرة من العصر الوسيط؟ ما هي المحطات التي سجلوا حضورهم بها؟ ما هي الأدوار التي لعبوها هناك؟ لذلك نتجه إلى دراسة الأحوال التي حفت بانتقال تجارة اليهود المغاربة ومظاهر ذلك من دخول الهاляيين القبروان إلى نهاية القرن ٧-١٣هـ، ثم ما تتوفر لدينا عن معطيات تهم تجارة المغاربة بموانئ الشرق الأقصى؛ وأخيراً حقيقة انخراط التجار المغاربة في التحولات التجارية العالمية خلال القرن ٩-١٥هـ وما تج من تسارع الدفع العثماني في شرق المتوسط إلى المحيطات حتى اكتشاف طريق آخر يوصل إلى الهند سنة ٩٠٦-١٤٩٨هـ من قبل الغربيين.

اليهود المغاربة في المغرب والشرق

إنّا إذ نطرح في الحقيقة موضوع انتقال تجارة اليهود المغاربة إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، فمن المؤكد أنّ هؤلاء كانوا الوسطاء الأساسيين في جلب البضائع الشرقية الشمينة إلى أرض «المغارب» وربما كان هذا بدعم كبير من النظام الخلافي الذي ازدهرت في عهده أرض الإسلام خلال القرن ٤-١٠هـ، فيما عرف بتجارة الرهادنة^١ لكننا سنشهد بين ٤٤٣-١٠٥٠هـ و٤٧٥-١١٥٠هـ قرناً بأكمله أقل ما يمكن أن يقال عنه إنّه شكل مناخاً معادياً لليهود في الحوض الغربي للمتوسط مما أجبرهم على نقل رؤوس أموالهم إلى الفسطاط ومن هناك إلى عدن والهند. وإن كنا محظوظين بتوفّر تلك الرسائل الخاصة من التجار ووكالائهم في الفسطاط والمغرب الإسلامي والأندلس فإنّنا لا نعرف بالضبط كيف تواصلت هذه الأنشطة وإلى أي وقت، وما هي الطرق الجديدة، وما هي حقيقة علاقتهم بسلط الأمانة الجديدة التي ييدو أنّهم يعرفونها جيّداً وأنّ حلولهم بها هو تواصل لأنشطة كانت موجودة من قبل، وكان مركزها المتوسط.

والآن^٢ وبعد حلول الهاляيين بالقبروان (٤٠٣هـ / ١٠٥٠م) والصلبيين بالشرق (٥٠٦هـ / ١١٠٠م) والموحدين بال المغرب (٥٤٨هـ / ١١٥٠م) وما تبعه من إجراءات إقصائية وقمعية قاسية، إنّا في هذا الصدد، نتجه إلى تحديد

١. انظر على سبيل المثال: ابن خرداذبة، المسالك والمالك، ص ٢٩.

٢. حول تجاراتهم بين المغرب الإسلامي والشرق خلال القرنين ٤-١١هـ / ١٠٥٠-١١٥٠م، راجع: مراد الرّمّاح «تجارة المهدية مع الشرق»، ص ٥-١٥. أو ليفيرا كونستابل، التجارة والتجار في الأندلس، ص ١٥؛ Goitein, «La Tunisie du xi^e siècle»، ١٥، راجع: مراد الرّمّاح «تجارة المهدية مع الشرق»، ص ٥-١٥. وحول التحولات مع الشرق راجع كتابنا: لطفي بن ميلاد، إفريقيا والشرق المتوسطي، ص ٢٠٠.

إطار هيوستوريوغرافي لهذا الانتقال وما يتلوه من إشكاليات تاريخية. فنحن هنا أسرى ما توفره لنا رسائل الجنيزا، تلك الخاصة بالقاهرة^٣ ثم تلك الخاصة بالهند^٤، فهل تستوفي هذه المصادر كل ما يمكن أن نعرفه عن تشكيل تجارة المحيط الهندي؟ وهل أن الرسائل التي بآيدينا هي كل رسائل الجنيزا التي تهم الموضوع؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل تستوفي كل معرفتنا بتجارة يهود الغرب الإسلامي في المحيط الهندي وتوصلها وشبكاتها وعلاقة هؤلاء بالعناصر الجديدة؟ ونحن نتساءل ما إذا كنا في مأزق هيستوريوغرافي فنحن هنا بقينا أسرى وثائق الجنيزا بين ١٠٥٠ م إلى ١١٥٠ م تقريباً. يعني بين حدثين هما قدوم الهاالليين (اضطراب الطريق البرية) وقدوم الموحدين (منع الحضور اليهودي - افتراضياً - على أرض المغرب) دون أن ننسى ما بينهما وهو الحضور المسيحي بالأندلس وببلاد الشام وصقلية. وبالتالي نحن إزاء تغير الأدوار في حوض البحر المتوسط لفائدة العنصر الإيطالي (تجاريًّا) الذي بدأ يستفيد من إمكانياته في نقل البضائع من حلب إلى قادس، إذن تعطينا هذه الوثائق (الجنيزا) فكرة عن اضطراب تجارة اليهود المغاربة مما أدى بهم إلى الاستقرار في الفسطاط (كانوا محظوظين من قبل الفاطميين) ثم عدن (اضطراب الأوضاع بعد قدوم الصليبيين). وبالتالي نحن إزاء انتقال أعداد هامة من تجار إضافة إلى جالية وجدت من قبل في العصر الفاطمي الأول وكان لها نشاط واضح^٥ : اليهود المغاربة أو يهود المغرب الإسلامي بما في ذلك يهود الأندلس. فالوثائق التي بیننا (الجنيزا) والتي تناولها بالتعليق والنشر المستشرقون اليهود وأهمهم غويتين وايدوفيتشر، تفيد باستحالة مواصلة هؤلاء البقاء في المتوسط بعد الأحداث المتالية هناك. لكن من الأكيد أنهم واصلوا على الأقل نقل رؤوس أموالهم إلى عدن وتعيين وكلاء في الفسطاط لمتابعة نقل هذه التجارة إلى المحيط الهندي^٦، دون أن يقطعوا صلاتهم هناك حيث كان ثمة انتقال تدريجي تكتف خصوصاً خلال النصف الأول من القرن ٦ هـ/ ١٢١٠ م مع تلك الإجراءات التي أعلن عنها الموحدون والتي مما لا شك لم تكن وحدها بل كانت جزءاً من إطار عام كان معادياً للوجود اليهودي في المتوسط. ومع موقعة حصن العقاب في الأندلس ٦٠٩ هـ/ ١٢١٠ م كان علينا أن نلاحظ تدريجياً اختفاء وثائق الجنيزا التي مازالت تتحدث عن مراسلات بين تجار يهود في اليمن والهند ونظرائهم أو أقاربهم مع مطلع القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي وهو ما يدل على انتهاء حقبة تجارة اليهود المغاربة والأندلس دون أن ينهي وجود اليهود نهائياً^٧.

٣. انظر : Goitein, «La Tunisie du xi^e siècle» ; Goldberg, *Trade and Institutions* :

٤. Margariti, *Aden and the Indian Ocean Trade*, p. ١٧٦.

٥. أحمد عبد اللطيف حنفي، المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية، ص ٥٢-٥٣.

٦. حول هذه الوكالات راجع: أمين توفيق الطيبى، «جوانب من النشاط الاقتصادي»، ص ١٢٧-١٦٢، Bramoullé, «The Fatimids», p. ١٢٧.

٧. حول هذه الإجراءات راجع دراستنا: لطفي بن ميلاد، «لباس اليهود»، ص ٥-٦.

٨. حول الحضور اليهودي بالغرب الإسلامي في نهايات العصر الوسيط راجع: فاطمة بوعمامه، اليهود في المغرب الإسلامي؛ عطا علي محمد شحاته رية، اليهود في بلاد المغرب الأقصى؛ أريكي غوزاليس كرافيلو، ملاحظات حول تاريخ اليهود؛ Jadla, «Les Juifs en Ifriqiya».

Jadla, «Musulmans et Juifs»

فإذا عدنا إلى هذه الرسائل (سواء الجنيزاً أو تجارة الهند) فإننا نستفيد من ذلك، انتقالاً تدريجياً للتجار وحركة التجارة في اتجاه الهند بحكم فقدان العديد من المراكز (القيروان، المهدية، طرابلس، صقلية) خلال النصف الثاني من القرن ١١هـ/١١٥م بينما نجد مجموعة من كبار التجار أسست لما يسمى بـ «تجارة الهند» عبر عدن والإسكندرية وصولاً إلى الهند، وكانت كل الرسائل تعطينا تفاصيل عن هؤلاء فنجد ذكراً مثلاً ليوسف بن داود البدي (من لبدة-طرابلس) نحو سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٨م^٩، وكذلك عروس بن يوسف المهدوي وربما يُعرف في بعض الأحيان بأبي الأفراح الأندلسي (الأرجواني) الذي أنشأ مصفي له بالفسطاط حيث استقر نهائياً نحو ٤٩٦هـ/١١٠٠م، وتفيد الرسالة التي وجهها إلى أحد وكلائه في الأندلس حقيقة اضطراب التجارة البحرية في المتوسط وتمهد للاستقرار نهائياً في اتجاه الهند^{١٠}. هكذا نتبه إلى تركز الأنشطة بين الهند والأندلس خلال النصف الأول من القرن ٦٢هـ/١٢١م من ذلك خلفون بن نيشانيال الدمياطي الذي كانت له أنشطة بين عدن ومصر والمغرب والأندلس (٥٢٩هـ/١١٤٦م-٥٤١هـ/١١٢٥م). وقد وصلت رحلاته إلى الهند في (٥٢٩هـ/١١٣٢م-٥٤١هـ/١١٤٨م)، ثم عاد إلى المغرب نحو سنة ٥٣٤هـ/١١٣٨م^{١١} وكانت معظم رسائله من الأندلس. كما استقر أباً ذكري كوهين السجلماسي كوكيل تجاري في الفسطاط بمصر ليرعى تجارة كانت تدار بين الهند والمغرب بين ٥٢٧هـ/١١٣٢م-٥٤٣هـ/١١٤٨م^{١٢} وفي نفس تلك الفترة استقر إبراهيم بن ييجو بعدن نحو سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م^{١٣} ونفهم من خلال رسالة وجهها من هناك بتاريخ سبتمبر ٤٥٤هـ/١١٤٩م أنه جمع ثروة طائلة من مزاولة التجارة بين الهند وعدن ومصر، ونفهم أيضاً من خلال هذه الرسالة شدة الوعي التي كانت تحل بإفريقياً بعد هجوم النورمان على المهدية سنة ٤٥٤هـ/١١٤٩م ثم الموحدين^{١٤} ومن ثمة سنجد تلاحق الانتقال إلى البحر الأحمر حيث نجد أن آخاً دافيد بن ميمون الأندلسي توفي غرقاً في أحد المراكب سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م^{١٥}، في حين أنه نكاد نجزم باختفاء أي حديث عن هؤلاء أو عن أي دور لهم في الغرب الإسلامي والهند، ففي تلك الفترة بدأت إجراءات حقيقة لمنعهم من الحضور في تلك المنطقة انتهت بعملية «التمييز». إنّ مثل هذه الإجراءات ستخفي من الحركة التجارية عنصراً مهمّاً في التجارة مع الهند، ليقتصر هؤلاء على الحضور في المحيط الهندي بين عدن وكلكتونا^{١٦}، وهو ما سيدفع الموحدين

.٩ Goitein, *Letters*, p. 27, ١٦٧.

.١٠ Goitein, *Letters*, p. 232.

.١١ Goitein, *Letters*, p. 26١.

.١٢ أوليفير كونستاينيل ، التجارة والتجار في الأندلس، ص ١٥٦.

.١٣ Goitein, *Letters*, p. 265-268.

.١٤ أوليفير كونستاينيل ، التجارة والتجار في الأندلس، ص ١٥٦.

.١٥ حول حال تجارة الهند خلال القرنين ٦-١٢هـ/١٣-١٢م، راجع: محمد كريم الشمرى، «العلاقات التجارية بين عدن والهند»؛ روبر سرجنت، «التجارة والتجار في اليمن»؛ شلومودوف غويتين، «خطاب ووثائق»، ص ٢٥٧؛ محمد أحمد الكامل، «مظاهر وآثار نشاط حركة الهند»، ص ٦٣-٦٢؛

.Chakravarti, «Indian Trade», p. 28

إلى التعاون مع عنصر جديد هو المدن الإيطالية (بيشة، جنوة) بالضرورة. لكن دون أن نغفل عنصراً آخر هو التجار المسلمين من الغرب الإسلامي الذين استفادوا من رحلتهم إلى الشرق للإتجار في تجارة الهند، واستقرارهم هناك سواء كان مؤقتاً أو نهائياً، فأي أدوار ستكون لهؤلاء؟

المسلمون المغاربة في المشرق وتجارة الهند إلى نهاية العصر الوسيط

إن حقيقة تحول تجارة الشرق الأقصى إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر تعد من القضايا المطروحة، فمن المؤكد أنّ طريق الحرير الطويل لم ينقطع أبداً، لكنه أصبح في حوزة وسطاء آخرين سيعوضون اليهود وهم التجار الإيطاليون الذين احتكروا المجال البيزنطي من البحر الأسود إلى المتوسط عبر البوسفور، فضلاً عن أنه من غير المفید هنا الإصرار على ربط تجارة المحيط الهندي بنقل رؤوس أموال اليهود المغاربة إلى هناك، فمن المؤكد أنها تجارة وجدت من قبل، وربما وجدت دعماً زمن الفاطميين حيث انتشرت حركة الدّعاء منذ أوائل القرن ٥١١هـ، مثلما نعتقد أنّ المغاربة من غير اليهود كانوا قد ساهموا بالفعل في نشاط من هذا النوع أو اشتركوا مع غيرهم من جنسيات أخرى أهمها المصرية حيث تمر البضائع من عيذاب إلى الإسكندرية في المتوسط ولعل أهم هؤلاء القاضي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن اللخمي البيساني العسقلاني ثم المصري (٥٢٩هـ-١١٣٤م/٥٩٥-١١٩٧م) الذي كان «ضياعه خمسون ألف دينار، سوى التحارات من الهند والمغرب»^{١٦}، بينما كانت جالية مغربية قد استقرت نهائياً للعلم والمجاورة والتجارة بالحجاز وحتى اليمن منذ مدة، استفادت من وجودها هناك لممارسة التجارة في البحر الأحمر، من ذلك قدم أبو العباس أحمد ابن محمد الأبي وقد كان أديباً وشاعراً سافر إلى اليمن تاجراً، ثم غادرها إلى مصر فاستقر بالإسكندرية ولستنا متأكدين من أنه بقي هناك أم عاد سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م. سافر ابن المجاورة سنة ٦١٨هـ/١٢٢٢م في سفينة الخواجا نجيب الدين ابن أبي القاسم البجائي^{١٧}، وكذلك أمين الدين بن العالمة من أصل مغربي (ت ٦٦٩هـ/١٢٧٠م)^{١٨} وكذلك محمد القسطلاني (عاش بين ٦٩١هـ-٧٥١هـ/١٢٩١م-١٣٥٣م)^{١٩} كانت «تجارته بين مكة ومصر» بينما استقر عبد الله بن يوسف التلمساني^{٢٠} بعدن حيث امتلك العديد من المراكب، ومن المؤكد أنّ وجود تلك النخبة العالمة في مناصب القضاء والإفتاء والعلم بالحجاز جعلها تستفيد من علاقتها بكتاب

١٦. ابن العياد، شذرات الذهب، ص ٣٢٥.

١٧. ابن المجاورة، تاريخ المستنصر، ص ٢٦٧.

١٨. المقربي، المتفق، ص ٦١.

١٩. ابن حجر، الدرر الكامنة، ص ٢٢٨.

٢٠. باخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ٢٧.

الأمراء والتجار، بل تمتلكن تجارة الكارم خاصة خلال القرن ٩ هـ/١٥١٥ م ومما لا شك فيه أنها لم تكن بعيدة عن تلك الأحوال والتحولات التي رافقت علاقه السلطة بالتجارة بين مكة وجدة وعاصمة المماليك.

ومن أشهر هؤلاء يمكن أن نذكر محمد بن قاسم الفقيه الجذامي الأندلسي (ت ١٤٨٦ هـ/١٨٩٢ م) حيث كان يمتلك التجارة مع أهل الإسكندرية^{٢١}، ومارس قبله عبد القوي بن محمد المالكي البجائي (ت ١٤١٣ هـ/١٨١٦ م)^{٢٢}، النازل في مكة التي قضى بها مدة ٤٦ سنة، النشاط التجاري، دون أن ننسى محمد بن أبي بكر الحنفي المغربي الذي أنهى حياته بالقاهرة^{٢٣}. وفي تلك الخلافات بين سلطاني القاهرة وجدة، أرسل أمير مكة أحمد القسطلاني وسيطًا لدى السلطان المملوكي (ت ١٣١٥ هـ/١٣١٤ م)^{٢٤}. ولا يمكن أن نغفل عن تلك التحولات التي رافقت القرن ٩ هـ/١٥١٥ م في اتجاه تنافس القوى اللاتينية على التوجه إلى شرق المتوسط ومن ثمة ازدياد الطلب على البضائع الشرقية من بهارات وتوابل وحرير، الخ. غير أن هذا الأمر اصطدم بعوائق حقيقة منها احتكار السلطان المملوكي لتجارة الفلفل سنة ١٤٢٥ هـ/١٤٢٢ م وصولاً إلى امتلاكه الحق دون غيره سنة ١٤٣١-١٤٣٢ هـ/٨٣٥ م في امتلاكه بيع البهار^{٢٥}. إن هذه التطورات ولا شك أدت إلى توسيع العلاقات بين التجار الغربيين والسلطة المملوكية، ثم زادتها حدة تلك الأخبار الواسطة إلى الغرب عن تسارع حصار العثمانيين للقدسية انتهاءً بسقوطها سنة ١٤٥٣ هـ/٨٥٦ م وما تلى ذلك من ضرب للمراعز التجارية الإيطالية هناك وبالتالي غلق منافذ الشرق عبر البوسفور وهو ما سبب ضغوط حقيقة على التجارة الغربية. ومما لا شك فيه أن توجه الغربيين إلى المحيط الأطلسي كان سببه الأصلي البحث عن طريق توصل إلى الهند فلم يكن من باب الصدفة أو المفاجأة الانفتاح على عالم الكشوفات الكبرى. بل إن أزمة التجارة الغربية في علاقتها بأقصى الشرق هي التي فتحت أبواب المحيطات على مصراعيها أمام أوروبا^{٢٦}.

إننا في خضم هذه الأجواء المتسارعة الصارخة وأمام قلة المعطيات التي لدينا نحاول أن نتبع أدوار المغاربة وحقيقة ذاتها التي تجعلنا نتبع متون الترافق سنداً أن أحمد بن قاسم الفزارى الطرابلسي، المتخصص في تصدير المرجان إلى الإسكندرية، قد ارتحل للمرة الثانية سنة ١٤٦٦ هـ/٨٦٦ م إلى الهند (وهو ما يفيد ارتحاله مرة أولى) بل يبدو أن ثروته قد كبرت فانتقل إلى اليمن (استقر) ليتابع تجارة صاحب الهند والتجارة لنفسه^{٢٧}. إذن هنا نفهم حاجة صاحب الهند (ملك الهند) إلى هؤلاء للاعتماد على ثروته التجارية. فمن المؤكد أنه في تلك الفترة زادت

٢١. السخاوي، الضوء، ص ٢٨٩.

٢٢. ابن العياد، شذرات الذهب، ص ١٢١.

٢٣. السخاوي، الضوء، ص ١٨٤.

٢٤. ابن حجر، الدرر الكامنة، ص ٢٤٤-٢٤٥.

٢٥. Vallet, «Le marché des épices», p. 213; Vallet, «Les navires de Calicut», p. 325.

٢٦. عن هذه التحولات راجع على سبيل المثال: محمد عبد الغني الأشقر، تجارة التوابل في مصر، ص ٣٩٩؛ محمد عبد الحميد سعيد، الحياة الاقتصادية باليمن؛ ريتشارد مرتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ص ١٧٣.

٢٧. ابن خليل، المجمع المفزن، ص ٤٠٧.

الضرائب على تجار الهند من قبل حاكم جدة، مما جعلهم يتراجعون عن الذهاب إلى هناك ومن الطبيعي هنا أن نفهم أنّ الهند لم يتخلوا عن التجارة مع ميناء جدة (حيث واصلوا تصدير بضائعهم) ومن هناك تتوالى حركة الصادرات -الهندية- إلى عيذاب ثم الإسكندرية، (إنّ تجارة الهند تواصلت بكل الوسائل التي أتيحت لها) لحاجة الأوروبيين إليها وهم الذين كانوا مستعدين للدفع بأي مقابل في الوقت الذي عملوا فيه بجدّ على التخلص من الوساطة المملوكية بالتعويم على وسطاء مغاربة، بينما كانت المشاريع الكبرى تتهيأ في إيجاد طرق بديلة غير المتوسط (العثمانيون) والبحر الأحمر (المماليك) ونوابهم.

هكذا نفهم أنّ انخراط المغاربة في عمق التجارة الدولية له معانٍ خالٍ من الزمن (١٤٩٨-١٤٠١) ولم يكن وليد هذا القرن لكنه كان بنفس القوة التي كانت عليها هذه التحولات. فمن المؤكد أنّ تكونت نخبة تجارية من الغرب الإسلامي كانت تستفيد من الصراعات الدائرة من جنوب الأندلس إلى جنوب اليمن وهؤلاء اكتسبوا علاقات مع ملوك أوروبا إلى الهند الذين كانوا يقاسمونهم الأرباح. وكان عبد الباسط أحد مصادرنا المهمة في التاريخ لهذه النخبة ومنها أحد مواطني هذا التاجر وهو العوادي (من جهة طرابلس) الذي قد لا يكون امتلك حظوة لدى صاحب الهند، أو على الأقل لم يصلنا أنه كذلك^{٢٨}، لكننا نجد مغريًا آخر وهو أيضًا من ناحية طرابلس الغرب واسمه مساعد بن حامد المصري المغربي^{٢٩} كانت وفاته بالهند. فهذا التاجر انتقل إلى مصر والجهاز لكنه توفي بالهند مما يدل على أنّ الوساطة في تجارة الهند كانت بالبحر الأحمر لكنّها أيضًا كانت تفرض على أصحابها الإقامة في عالم المحيط الهندي لضمان وصول السفن والبضائع ودوريتها وانتظامها ومما لا شك فيه أنّ هؤلاء كانوا قد تمكنوا من امتلاك مهارات عديدة كفنون الملاحة البحرية وتقنيات الإبحار والمعرفة بلغات الأمم التي كانت تعتمد عليهم في تسهيل وصول بضائع الهند إليها فلم يكونوا في حاجة إلى غزوها، كما أنّ هؤلاء كانوا يعتمدون أيضًا على حكام الغرب المسيحي وخاصة حكام شبه الجزيرة الإيبيرية الذين ازدهرت قوتهم البحرية والتجارية خلال القرن ١٥ هـ/١٥ م^{٣٠} من ذلك تسلل تاجرٍ برتغاليٍ في مهمة سرية، من المؤكد أنها كانت على علاقة بالبحث عن بدائل أخرى للسلطة المملوكية في تحكمها في التجارة بين عدن والإسكندرية. إذ نشهد مثلاً تسلل بيبرو دي كوفيلام وزميله ألفونس دي بابوا بين ٨٩٣-١٤٩٠/٨٩٥-١٤٩٨ حيث انضم إلى قافلة مغربية (من المؤكد أنها تعلم سلفًا حقيقة مهمة الرجلين ولعل ذلك كان بتسهيل السلطة الحاكمة وبمقابل كبير دفع لأصحاب القافلة وربما كان هذا المقابل جانبًا عينًا أو نصيبيًا مما كان يؤتى به للهند)، ثم رحلا بالبر إلى الطور ثم بالبحر إلى عدن وصولاً إلى الهند حيث أرسلا معلومات مهمة. إنّ

٢٨. ابن خليل، المجمع المفزن، ص ١١٩؛ لطفي بن ميلاد، «في تمثيل الرحالة المصري»، ص ٣٨.

٢٩. السخاوي، الضوء، ص ١٥٤؛ «Les relations diplomatiques

٣٠. Coulon, *Barcelone et le grand commerce*, p. 353, 381, 384, 575

العبارة الأخيرة تؤكد حقيقة المحاولات الجدية التي كانت تحرّك الإيبيريين الذين سيطروا على جنوة^{٣١} بعد انسحابها من شرق المتوسط نتيجة السيطرة العثمانية بقوة المدافع بينما بقيت البندقية تصارع من أجل حماية المثلث الحفصي - المملوكي - البندقى حتى انقطاع آخر خطوطها التجارية عام ٩١٢هـ / ١٥٠٩م. وفي تلك الظروف يمكن استعمال الطرق الصحراوية أيضاً للبلوغ المأرب المختلفة إلى البحر الأحمر^{٣٢}، وفي كل تلك المحاولات كان التجار المغاربة حاضرين بقوة فقد كانت لفاسكو دي غاما البحار البرتغالي الذي يعزى لفريقه الوصول إلى الهند عن طريق السواحل الأفريقية سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م اتصالات مع تونسيين «*deux Maures*» يتقنان جيداً القشتالية والجنوية. ومن الواضح أن هذين المغاربيين أيضاً لم يكونا بعيدين عن اكتشاف طريق الهند على وجه الصدفة ليؤدي إلى كشف القارة الجديدة (المدعوة لاحقاً: أمريكا) فالأدلة المغاربة من المؤكد أنهم لعبوا الدور الوسيط في البحث عن تلك الطريق وتوجيه السفن حسب الاتجاهات والرياح والمواسم وغيرها ولم لا الاستفادة من عالم التقنيات المتحول بكثافة في عالم الغرب خاصة منها الخرائطية التي وجدت عند العديد منهم منذ أواخر القرن ٩هـ / ١٥٠٩م. من ذلك ما حدث به الحميري في معجمه عن قادس: «ويزعم أهل جزيرة قادس أنهم لا يزالون يسمعون أن الراكب في هذا البحر / البحر المحيط / إذا ألح فيه وغاب عنه صنم قادس، بدا له صنم ثالث فإذا تجاوز سبعة أصنام صاروا في بلاد الهند»^{٣٣}.

فالرحال البرتغالي فاسكو دي غاما يذكر في مذكراته عن لجوء تاجر «تونسي» (مسلم بربرى من تونس) إلى أحد مراكبه كان مهدداً بالقتل للشك في أنه مسيحي يتاجسّس لفائدة البرتغال^{٣٤} في وقت كان فيه ملك كليكوت في أوج الصراع مع البرتغاليين لرفضه مذهبهم بالتوابل كما أجرّ مرشدًا (يبدو أنه أيضاً من تونس) أرسله إلى مواطنه الذين رحبا به بعد ما دهشاً لعدم إرسال سائر الممالك الغربية وسطاء إلى الهند لجلب التوابل وهو ما يدل على أنّ طريق التوابل قبل البرتغال كان مقتصرًا على الوسطاء الإفريقيين الذين أدركوا حقيقة القوة البرتغالية التي حملت المكتشف البرتغالي على العودة بعد سنوات بحملة عسكرية سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م لحمل التوابل إلى لشبونة وجنوة. إنّ هؤلاء كانوا في قلب الوعي بالأحداث المتحولة على تخوم المحيطات من البحر المتوسط والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي والمحيط الأطلسي.

فالجدل القائم منذ مدة عن حقيقة إسهام المغاربة في حركة الكشوف الكبرى^{٣٥} لم يكن من فراغ بل إنّ المغرب كان حلقة الوصل بين إيبيريا والمدن الإيطالية المتتكسة نتيجة الحضور العثماني في الشرق وما احتلال البرتغال لميناء

٣١. محمد أمين صالح، تجارة البحر الأحمر، ص١٣٤؛ ٦٧٨ p. .Paviot, «Marins et marchands Portugais»,

٣٢. إبراهيم حركات، «دور الصحراء الأفريقية»، ص٢٧؛ عز الدين عمر موسى، «طريق عبر الصحراء»، ص١١٨.

٣٣. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٤٨؛ «Récits merveilleux

٣٤. De Gama, *Voyage de Vasco de Gama*, p. 125 et 153

٣٥. حول أولية المسلمين في الكشوف الكبرى راجع: استيانكو الأزموري، مغامر مغربي؛ هانيكة زهدوف، معدنة كولومبوس؛ محمد توفيق مقبل، فضل العرب والعثمانيين.

سبعة سنة ١٤١٨هـ/١٨٢٣م إلا جزء من هذه التحولات. إذ أنّ القرن ٩هـ/١٥١٨م الذي انتهى بهيمنة العثمانيين على المواني الشرقيّة للمتوسط ثم بدأ مطلع القرن ١٠هـ/١٦١٦م وحتى الاستبسال الأخير للإسبان في الدفاع عن وجودهم في تونس طوال نصف قرن تقريباً (١٥٣٥-١٥٦٩م) لم يكن مجدياً، ليتلوه صراع مباشر بين البرتغال والعمانيين في عدن. وفي نفس الوقت كان هؤلاء يخوضون صراعاً مميراً للسيطرة على المواني الأطلسية للمغرب الأقصى للحفاظ على نقاط مراقبة لوصلهم دائمًا إلى الهند^{٣٣}، ولعل ذلك كان امتداداً لمحاولات عديدة من أواخر القرن ٨هـ/١٤١٤م من ميناء قادس. على أنّ التجار المغاربة لم يكتفوا بالهند بل وصل بعضهم إلى الصين.

الصين والمغاربة من أرض العجائب إلى وجهة التجار

عرف أهل الغرب الإسلامي الصين في وقت مبكر دون أن تستطيع تأكيد تاريخ لذلك فمن المؤكّد أنّ تجارتهم كانت تطلق من موانئ شرق المتوسط إلى بغداد ثم من ميناء البصرة إلى الهند حتى تخوم العالم الصيني. من ذلك، ما أورده ابن العماد الحنبلبي في «شدرات» عن أبي الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنباري المحدث إلى الشرق، و«سافر في التجارة إلى الصين، وكان عالماً مثقفاً وقد تفقه ببغداد على يد الغزالى ومات فيها سنة ١١٤٧هـ/٥٤١م»^{٣٤}؛ ومما لا شك فيه أنه تواجدت نخبة أندلسية على تخوم هذا البلد وعلى الطرق المؤدية إليه؛ فمن البديهي أنّ هؤلاء كانوا من أصحاب الشروة والعلم وكانوا قادرين على جلب بضائع مهمة من الصين، بل الأرجح أن يكونوا مكلّفين من قبل السلاطين أو الأمراء لجلب أثمنها خاصة الألبسة من الحرير والجواهر، مقابل حظوة لا تقل أهمية.

وقد نقلت بعض كتب التراجم أخباراً عن هؤلاء^{٣٥} لكن المعطيات التي تأتينا من خلال المصادر متفرقة في الزمن ومتضبة جداً إذ تكتفي بذكر الصين كنقطة قصوى في الاتّجار من المتوسط إلى الهند، لكن الأمر يختلف عن العصور السابقة فمع مطلع القرن ٦هـ/١٢م نعد نلحظ ذكرًا للمحطات البرية التي تسبق الوصول إلى الصين (هذا إن حصل) فتكتفي النصوص بذكر الصين مثلاً بعد الهند، وهذا يعني أنّ المرور لم يكن إلا بحراً للوصول إلى هناك. فهل يعني أنّ المغاربة لم يصلوا أبداً عن طريق الطرق البرية والتقلدية، والمعلومات التي تصل عن الصين هي معلومات متضبة بعد مدة لا تتجاوز اسم المكان، فهي معلومات تأتينا بعد ورود التجار-العلماء من هناك. إذن غالباً لم يكن هناك تخطيط لمثل هذه الرحلة بل هي رحلة غير معروفة مسبقاً فهؤلاء المغاربة من المؤكّد أنّهم لا يملكون سفناً تحت تصرفهم، بل هم يستقلون سفناً لآخرين كمصريين أو حجازيين في البحر الأحمر أو بمنطقة المحيط الهندي عن طريق يمنيين أو هنود، فهناك تجارة دولية قائمة بذاتها بين الإسكندرية حتى عواصم الصين.

٣٦. إبراهيم جدلة، «هجمات الإسبان والبرتغاليين».

٣٧. ابن العماد، شدرات، ج ٢، ص ١٢٨.

٣٨. Imamuddin, «Spain and his Relations with Iraq», p. ١٧٧؛ ٥٩٤-٥٧٩؛ ٥٦٦.

إنّ غموض الصين في المتخلل المغاربي هو ما يدفع إلى التباس هذا المجال بالعجائب والغرائب. فمن المؤكّد أنّ تخوم هذا العالم لم تلجم الإسلام بعد إلا بعد اعتماد العائلة التيمورية للإسلام من مطلع القرن ١٦ م إلى أواخر القرن ١٩ م. وعليه فإنّ هذا الجانب العجيب يبدأ في الظهور عند الحديث عن عوالم لا تدين بالإسلام أو عوالم مجاهولة لم يتم الوصول إليها بعد. فالتاجر الأندلسي الشهير أبو حامد الغرناطي الواصل إلى القاهرة سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م قبل ولو جه أوروبا الشرقية حتى هنغاريا عن طريق آسيا الصغرى، أخذ معلوماته من الشيخ أبي العباس الحجازي^{٣٩} الذي يروي أنه قضى أربعين عاماً بين الهند والصين. لكننا لا يمكننا أن نعزلها عن المدّ الامبراطوري الفاطمي وخاصة إستراتيجية نشر الدعوة هناك. وهذا لا ينفصل أبداً عن دور التاجر في الدعوة. لكن ما يهمنا هنا مثلاً هل منعت هذه المعطيات الغرناطي من التفكير في ولوچ الصين وهو العارف بالتجارة النهرية وأقاصي العالم الإسلامي بل والمكتسب لعلاقات مع الوزير السلاجوفي يحيى بن هبيرة؟ وقد يزداد هذا الغموض عندما يعدل كثير من المغاربة والأندلسيين عن العودة إلى بلاد المغرب نتيجة الأوضاع التي اضطربت منذ مدة دون أن نعمم ذلك فأحدهم يدعى عبد الرحيم الصيني لكتّرة أسفاره هناك^{٤٠}. بينما كان التاجر الأندلسي أبو الحسن سعيد الخير بن محمد الأنصاري الأندلسي دخل الصين وانتهى إلى أصفهان ثم توفي في بغداد سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م^{٤١} في تلك الربوع ليعود أحد المشارقة الفرس منذ أواسط القرن ١٣ هـ/١٣٧٠ م على عهد المستنصر بالله الحفصي وهو أبو العباس الجدالي وكان قد رحل إلى تخوم الصين فيحل بمدن تونس وبجاية وسبتة ليري كثيراً من «الغرائب» عن العالم الصيني-الهندي^{٤٢}.

ويمكن أنّ الأمر سيعمق بازدهار تجارة الكارم والتحولات الطارئة على تجارة المتوسط حيث استفاد المغاربة من هذه التحولات إذ نجد كتب الترجم تذكر بعض هذه المعطيات النادرة: الجبلي التاجر «وصل الصين ثلث مرات يملك خمسمائة دينار إلى خمسين ألف دينار» (ت ٢٠٢ هـ/١٣٠٢ م)^{٤٣} وما أعجب هذا الرقم! إنه رقم ضخم لا يقدر عليه إلا كبار التجار ممّن اكتسبوا خبرة عظيمة في التجارة من البحر الأحمر إلى المحيط الهادئ. ومن المؤكّد أن يكون هؤلاء قد وجدوا التسهيلات والحظوظ لدى كل مملكة يحلون بموانيها. و لعل ابن بطوطة المتوفى نحو ٧٦٦ هـ/١٣٦٩-١٣٧٠ م مثل جانباً في هذا الإطار. فحين نريد الاستفادة من رحلة ابن بطوطة يواجهنا إشكال عويص من جهة افتقار المادة التاريخية لتنوع المصادر فابن بطوطة الراوي هو مصدرنا الوحيد، ولا توجد مصادر أخرى لذات الواقع يمكن أن نقارنها بها ونكافح الرواية بالرواية المختلفة عنها حتى نتوصل إلى تأكيد صحة ما ذهب إليه أو ثبت تهافته. وأكثر ما يثير الاحتراز من صدق الرواية الواحدة ما شهدته القرن ٨ هـ/١٤ م من ازدهار الكتابة في موضوع

٣٩. الغرناطي، *تحفة الألباب*، ص ١٢٩.
٤٠. الغرناطي، *تحفة الألباب*، ص ١٣١.
٤١. المراكشي، *الذيل*، ص ١٦-١٨.
٤٢. الغربيني، *عنوان الدراسة*، ص ١٠٦.
٤٣. ابن حجر، *الدرر الكامنة*، ص ٤٩٦.

الرحلات إلى المشرق، أو بين المشرق والمغرب، بداعٍ التعرّب إلى بلاطات الحكام فكان دافع الكتابة التكّسب لا التوثيق. ولا يخلو ذلك من انتشاء السري والحكوي والعجبائي في هذه الأديبّات. وممّا لا شك فيه أنّ ابن بطوطة استفاد من ازدهار حركة الملاحة بين اليمن والهند للوصول إلى هناك، دون أن يبدي لنا أنه كان تاجرًا فلا نفهم مثلاً لماذا قرب ابن بطوطة في البلاط الهندي دون غيره وهل كانت له معرفة باللغة الهنديّة، ثم لا شيء يدل على عودته ببعض المواد الشعيبة إلى البلاط المريني، لكننا يمكن أن نتساءل عن عودته مرة ثانية إلى الهند لتولي القضاء بعد ١٣٢٧هـ/١٧٦٢م تقريبًا^{٤٤}. لكنه لم يكن الأول وطبعاً لن يكون الأخير: من ذلك ما شهد به عن دور لعبه تاجر مغربي هو أبو البركات البربرى في نشر الإسلام السنّي المالكي بجزر المالديف (جزر المهل) على مقربة من شبه جزيرة الهند^{٤٥}. إن كل هذه التساؤلات تفضي إلى فهم أنّ عالم الصين لم يكن بعيداً عن تلك المبادلات التجارية من عدن إلى بيكين مروراً بسيلان إذ أن صاحب الرحلة ذاته يتحدث عن مقابلته تاجرًا سبيّاً (من سبّة) وهو البستري السبيّي كما ذكر لنا تاجرًا أندلسيًا كان يجيد اللغة الصينية وهو خالد أبو القاسم المرسي^{٤٦} وهو ما يؤكّد الاستفادة الكبيرة لهؤلاء من نمو تجارة الهند، من ذلك أن ابن خلدون ذكر أن مصادره حول تاريخ المغول وتقديمهم في فارس والشرق الأدنى هم التجار الصينيون^{٤٧}، ومن المؤكّد أن الصين كانت معنية بالحضور في المحيط الهندي بل والوصول حتى اليمن.

الخاتمة

قطع الالهاليون الطريق أمام يهود المغرب للتجارة بين الهند والمغرب الإسلامي فكان البحر الأحمر عبر الإسكندرية والقسطنطينية تتشكل تجارة الهند الكبرى، ثم اكتسح المغول الشرقيين فكانت الحاجة ملحة إلى طريق البحر الأحمر، من قبل المدن الإيطالية. وأخيراً ملك العثمانيون طريق البحر الأسود فكان الصراع مريضاً على عالم المحيط الهندي. لم يكن السقوط التدريجي للأندلس عامل انتهاء للتجارة هناك بل استفاد هؤلاء ومعهم التجار الإفريقيون من حركة المدن الإيطالية عبر الموانئ الإفريقية ليتحولوا إلى وسطاء في عالم «التجارة الدولية» بين الهند وإفريقيا. إن هؤلاء انخرطوا بقوة في هذه التجارة الشرقية التي لم تقتصر على الشاميين والمصريين فقط^{٤٨}، لكن انحرافاتهم كان فردياً فلم يستطعوا تكوين شبكات تحولهم إلى منافس تجاري حقيقي وجديّ بين المتوسط والعالم المحيطين.

٤٤. ابن حجر، الدرر الكامنة، ص ٤٨٠.

٤٥. ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٤٨٤-٤٨٥. للمزيد انظر: *Forbes, «Southern Arabia»*, p. 70 et 83.

٤٦. ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٣٧.

٤٧. ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ١١٣٠.

٤٨. محمد عبد الحميد سعيد، «دور اليمن في التجارة»، ص ١٢.

وعلى الرغم من تأكّد مساهمتهم لمدة أربعة قرون في ذلك الخطوط الرابط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ عبر المحيط الهندي فإن المغرب قد خسر المتوسط لفائدة العثمانيين (مسلمي الشرق) والمحيطات لفائدة الإيبيريين (الغربيين). فهل يكون غياب التخطيط الإستراتيجي لدى حكام المغرب لاكتساب أساطيل تمكّنهم من الهيمنة هو العامل الوحيد في هذا التأخّر (العامل التقني) أم أنّ علاقة العرب بعلوم الملاحة وبأسباب النهضة (العامل الثقافي) كان سبباً في ركود المغرب والشرق على حدّ سواء؟ لا تفيينا النصوص خصوصاً بعالم المغاربة في تلك الربوع على الرغم من الحديث عن تواتر المغاربة من الإسكندرية إلى الصين. فلا نستفيد من وجود وعي جالياتي وأحياء خاصة بالمغاربة ونظرة المغاربة بعضهم إلى بعض، ونظرتهم إلى غيرهم. فهل اقتصرت المساهمة المغاربة (الغرب الإسلامي) على مغامرات أفراد أو كبار التجار الذين كانوا يتطلعون إلى الثروة والسلطة أو اللجوء فراراً أو استقراراً... إنّها من الأسئلة التي نظرها لفهم المزيد عن حقيقة «وعي الغرب الإسلامي» و«الإسلام» بحركة التاريخ التي كانت تتحرك في اتجاه أمم غيره.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

- ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله اللواتي الطنجي)، تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٨٧.
- ابن حجر (أحمد علي)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج١، دار الجليل، بيروت، د.ت.
- ابن خرداذبة (أبو القاسم ابن عبيد الله)، المسالك والممالك، إعداد وتقديم خير الدين محمود قبلاوي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٥، دار الكتاب اللبناني، ط١، بيروت، ١٩٥١.
- ابن خليل (عبد الباسط الملطي الظاهري)، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، صفحات نشرها عمر عبد السلام تدمري، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحفيظ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م٢، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن المجاور (جمال الدين أبو الفتح)، تاريخ المستنصر، د.م. د.ت.
- بامحرمة (أبو محمد الطيب عبد الله)، تاريخ ثغر عدن، د.م. د.ت.
- عمر عبد السلام تدمري، رحلته إلى تونس، تونس، ٢٠١٠.
- عبد الباسط الملطي الظاهري، المجمع المفنن، نص نشره بن شاهين إلى تونس ١٤٦٦-١٤٦١هـ / ١٤٦٣-١٤٦١م، التاريخ العربي، عدد ١٧، ٢٠٠١، ص ١١١-١٤٧.
- ابن خليل (عبد الباسط الملطي الظاهري)، رحلة عبد الباسط بن خليل من شاهين إلى تونس ١٤٦٦-١٤٦١هـ / ١٤٦٣-١٤٦١م وترجمة تونسية في مخطوطين له، الكتابة التاريخية في العصر الوسيط من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة، أشغال الملتقى الدولي السادس، تونس ٢٨-٣٠ / ٠٤-٢٠١٠ م.
- راجع النصوص وأعدّها للنشر الرّاضي دغفوس وخالد كشier، منشورات مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ٢٠١٠، ص ٣٩١-٤٠٨.
- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحفيظ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م٢، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن المجاور (جمال الدين أبو الفتح)، تاريخ المستنصر، د.م. د.ت.
- بامحرمة (أبو محمد الطيب عبد الله)، تاريخ ثغر عدن، د.م. د.ت.

الغرناتي (أبو حامد عبد الرحيم ابن سليمان القيسي)، *تحفة الألباب ونخبة الأعجاب*، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجليل (بيروت) و دار الآفاق الجديدة (المغرب)، ط ٢، ١٩٩٣.

المراكشي (أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك)، *الذيل والتكميل لكتابي الموصول والصلة*، السفر الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.

المقرizi (تقي الدين أحمد ابن عبد الغني)، *المقفي الكبير*، ج ٥، دار الغرب الإسلامي، تحقيق محمد العلاوي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.

الحميري (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله)، *صفة جزيرة الأندلس (مستقاء من الروض المطار في خبر الأقطار)*، تحقيق احسان عباس، د.ت.

السخاوي (شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن)، *الضوء الامع لأهل القرن التاسع*، م ٥، ج ١، دار ملكية الحياة، بيروت، د.ت.

الغربي (أبو العباس أحمد)، *عنوان الدراء في معرفة علماء السابعة ببجاية*، تحقيق محمد بن شنب، المطبعة العالية، الجزائر، ١٩١٠.

المصادر الأجنبية

De Gama, *Voyage de Vasco de Gama: Relations des expéditions de 1497-1499 et 1502-1503*, traduit et annoté par Paul Teyssier & Paul Valentin, présenté par Jean Aubin, Chandeneige, Paris, s.d.

Goitein, S.D., *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton University Press, Princeton, 1974.

أمين توفيق الطيبى، «جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس هجري ١٢١٢م»، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج ٢، الدار العربية للكتاب، تونس وطرابلس، ١٩٩٣، ص ١٢٧-١٦٢.

انريكي غوزاليس كرافيطو، ملاحظات حول تاريخ اليهود في سبعة من القرن ٩ إلى القرن ١٦، تعریف محمد الشریف، دار أبي رفاق للنشر، الرباط، ط ١، ٢٠٠٧.

أوليفيرا كونستايل، التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة فيصل العبد الله، مكتبة العيikan، الرياض، ٢٠٠٢.

روبير سرجنت، «التجارة والتجار في اليمن من القرن ١٣ إلى القرن ١٦»، دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي الوسيط، ط ١، ٢٠٠٤، ترجمة وتقديم نهى الصادق، د.ت.، ص ٥١-٩٣.

ريتشارد مرتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ت.

شلومو دوف غويتين، «خطاب ووثائق عن تجارة الهند في العصور الوسطى»، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص ٢٥١-٢٧٨.

إبراهيم جدلة، «هجمات الأسبان والبرتغاليين على المغرب والجهاد البحري»، الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، المجلد الرابع، القسم الثاني، تونس، ٢٠٠٨، ص ٥٤٩-٥٧١.

إبراهيم حركات، «دور الصحراة الافريقية في التبادل والتسوية خلال العصر الوسيط»، مجلة البحوث التاريخية، س ٣ عدد ١، طرابلس، ١٩٨١، ص ٢٧-٣٧.

أحمد بوشرب، «المخططات البرتغالية خلال القرنين ١٥ و ١٦»، في النهضة والتراث، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية، مهداة للأستاذ محمد المنوني، المعرفة التاريخية، دار توبقال للنشر، الرباط، ١٩٨٦.

أحمد عبد اللطيف حنفي، *المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية*، ج ٢، الدراسة الحضارية، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

استيانكو الأزموري، مغامر مغربي في أرض المونود الحمر. أكبر رحلة شرقية إلى أمريكا الشمالية ١٥٣٩، حققها وقدمها مصطفى أعراب، د.م.د.ت.

محمد توفيق مقبل، *فضل العرب والعثمانيين في اكتشاف العالم الجديد أمريكا: تساؤلات حول كتاب دور الأسطول العثماني في المغاربة، دار كنوز للمعرفة، البتراء عمان، ٢٠١٥*.

محمد عبد الحميد سعيد، *الحياة الاقتصادية باليمن في العصر الرسولي، أطروحة مرقونة، تونس، ١٩٩٨*.

محمد عبد الحميد سعيد، *دور اليمن في التجارة الشرقية الكبرى ١٤٢٢-١٥١٧، تحية تقديرية إلى أندرية ريمون، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ج ٢، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ٤٠٠٢، ص ١٥٩-١٨٨*.

محمد عبد الغني الأشقر، *تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، سلسة تاريخ المصريين، عدد ١٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩*.

محمد كريم الشمربي، *العلاقات التجارية بين عدن وأهند خلال القرنين ٦ و٧هـ/١٢ و١٣م، دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي الوسيط، عدن، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٣٤-٩*.

مراد الرماح، *تجارة المهدية مع الشرق في العهد الإسلامي المبكر، إفريقيا، مجلة المعهد الوطني للتراث بتونس، عدد ١٣، ١٩٩٥، ص ٥-١٥*.

هانيكة زهدوف، *معدنة كولومبوس: لست أول من اكتشف أمريكا، تعریف الدكتور حسين عمران، د.م.د.ت.*

عز الدين عمر موسى، *طريق عبر الصحراء "اللببية" من المغرب الأقصى إلى مصر، مجلة البحث التاريخية، عدد ١، طرابلس، ١٩٨٣، ص ١٠٧-١١٨*.

عطالي محمد شحاته رية، *اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة، دمشق، د.ت.*

فاطمة بوعمامه، *اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري المواقف للرابع عشر والخامس عشر ميلادي، كنوز الحكم، الجزائر، ٢٠١١*.

فوزي محفوظ، *رهادنة القيروان وافريقيا، مجلة إفريقيا، عدد ١٦، المعهد الوطني للتراث بتونس، تونس، ١٩٩٨، ص ١٣-٣٧*.

لطفي بن ميلاد، *افريقيا والمشرق المتوسطي، تونس، ٢٠١١*.
لطفي بن ميلاد، *في تمثيل الرحالة المصري عبد الباسط ابن خليل "لغرباء" بمدينة تونس ستينيات القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية س ٥٠ عدد ١٤١، ٢٠١٣، ص ٤٤-٤٧*.

لطفي بن ميلاد، *لباس اليهود بال المغرب الإسلامي زمن الموحدين، إيلا، مجلة معهد الآداب العربية الجميلة بتونس، س ٧٧ عدد ٢١٣، ٢٠١٤، شتاء ٢٠١٤، ص ٥-١٦*.

محمد أحمد الكامل، *مظاهر وآثار نشاط حركة المندى في ميناء عدن خلال حكم الدولة الرسولية ٦٢٨-٦٨٥هـ/١٤٥٤-١٢٢٨م، مجلة التاريخ العربي، عدد ١٧، ٢٠١١، ص ٢٣-٦٢*.

محمد أمين صالح، *تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، القاهرة، د.ت.*

المراجع الأجنبية

Bramoullé, David, «Recruiting Crews in the Fatimid Navy (909-1171)», *MedEnc* 13, 2007, p. 4-31.

Bramoullé, David, «Activités navales et infrastructures maritimes : éléments du pouvoir fatimide en Méditerranée orientale (969-1171)» in Fabre, Ghislaine, Le Blévec, Daniel & Menjot, Denis (éd.), *Les ports et la navigation en Méditerranée au Moyen Âge, Actes du Colloque de Lattes, 12-14 novembre 2004, Le Manuscrit*, Paris, 2009, p. 253-269.

Bramoullé, David, «Le réseau portuaire du califat fatimide en Méditerranée (969-1171) : une difficile mise en œuvre» in Coulon, Damien, Picard, Christophe, Valérien, Dominique (éd.), *Espaces et réseaux en Méditerranée (VI^e-XVI^e siècle)*, Bouchène, Paris, 2010, p. 45-73.

Bramoullé, David, «Alexandrie, les Fatimides et la mer» in Décobert, Christian, Empereur, Jean-Yves & Picard, Christophe (éd.), *AlexMed 4, Centre d'Études Alexandrines*, Alexandrie, 2011, p. 83-107.

- Bramoullé, David, «The Fatimids and the Red Sea 969-1171» in Agius A., Dionisius, Cooper, John P., Trakadas, Athena & Zazzaro, Chiara (éd.), *Navigated Spaces, Connected Places: Proceedings of the Red Sea Project V Held at the University of Exeter, 16-19 September 2010*, BAR Publishing, Oxford, 2012, p. 127-135.
- Bramoullé, David, «Financer l'activité navale fatimide en Égypte (973-1171) : contraintes financières et enjeux politico-économiques», *Revue d'histoire maritime* 22-23, 2017, p. 43-61.
- Chakravarti, Ranabir, «Indian Trade Through Jewish Geniza Letters (1000-1300)», *Studies in People's History* 2, 1, 2015, p. 27-47.
- Coulon, Damien, *Barcelone et le grand commerce au Moyen Âge : un siècle de relation avec l'Égypte et la Syrie-Palestine (CA 1330-1430)*, La Casa de Velázquez, Madrid, 2004.
- Doumerc, Bernard, «Les relations diplomatiques entre Venise et les émirs hafside de Tunis (1506-1525)», *Les cahiers de Tunisie* 168, 1995, p. 151-163.
- Forbes, Andrew D.W., «Southern Arabia and the Islamicisation of the Central Indian Ocean Archipelagoes», *Archipel* 21, 1981, p. 55-92.
- Goitein, S.D., «La Tunisie du XI^e siècle à la lumière des documents de Geniza», *Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi Provençal*, G.-P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1962, p. 559-579.
- Goitein, S.D. & Friedman, Mordechai A., *India Traders of the Middle Ages: Documents from the Cairo Geniza*, Brill, Leyde, 2008.
- Goldberg, Jessica L., *Trade and Institutions in the Medieval Mediterranean: The Geniza Merchants and Their Business World*, Cambridge University Press, Cambridge, 2012.
- Imamuddin, Syed M., «Spain and his Relations with Iraq, Persia, Khurasan, India and China at the Tenth Century», *Islamic culture* 8, 1961, p. 177-182.
- Jadla, Brahim, «Les Juifs en Ifriqiya à l'époque hafside», *Histoire communautaire : Histoire plurielle, la communauté juive de Tunisie. Actes du colloque de Tunis, 25-27 février 1998, faculté de la Manouba*, Centre de publication universitaire, Tunis, 1999, p. 145-151.
- Jadla, Brahim, «Musulmans et Juifs en milieu oasis à l'époque médiévale, l'exemple de Touat» in Fellous, Sonia (éd.), *Juifs et Musulmans en Tunisie*, Société d'Histoire des Juifs de Tunisie, Somogy Éditions d'Art, Paris, 2003, p. 87-92.
- Margariti, Roxani Eleni, *Aden and the Indian Ocean Trade: 150 Years in the Life of a Medieval Arab Port*, University of North Carolina Press, North Carolina, 2007.
- Paviot, Jacques, «Marins et marchands portugais en Méditerranée à la fin du Moyen Âge» in Coulon, Damien et al. (éd.), *Chemins d'outre-mer : Études d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, Publications de la Sorbonne, Paris, 2004, p. 671-679.
- Picard, Christophe, «Récits merveilleux et réalité d'une navigation en océan atlantique chez les auteurs musulmans», *Miracles, prodiges et merveilles au Moyen Âge. Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public*, Publications de la Sorbonne, Orléans, 1994, p. 75-85.
- Toukabri, Hmida, *Les Juifs dans la Tunisie médiévale (909-1057) d'après les documents de la Geniza du Caire*, Romillat, Paris, 2002.
- Udovitch, Abraham L., «Fatimid Cairo: Crossroads of World Trade from Spain to India» in Barrucand, Marianne (éd.), *L'Égypte Fatimide, son art et son histoire*, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, Paris, 1999, p. 689-691.
- Vallet, Éric, «Les navires de Calicut se détournent d'Aden au profit de Djedda. L'avènement d'une nouvelle route des épices» in Boucheron, P. (éd.), *Histoire du monde au XV^e siècle*, Fayard, 2009, p. 325-328.
- Vallet, Éric, *L'Arabie marchande. État et commerce sous les sultans rasulides du Yémen (626-858/1229-1454)*, Publications de la Sorbonne, Paris, 2011.
- Vallet, Éric, «Le marché des épices d'Alexandrie et les mutations du grand commerce de la mer Rouge (XIV^e-XV^e siècle)» in Décobert, Christian, Empereur, Jean-Yves & Picard, Christophe (éd.), *AlexMed 4*, Centre d'Études Alexandrines, Alexandrie, 2011, p. 213-228.